الإنذار مع أنه ﷺ بشير ونذير ، لكن خَصَّهم هنا بالإنذار ؛ لأنهم أهل لجَاج ، وأهل باطل وجحود ، فيناسبهم كلمة الإنذار دون البشارة .

ثم يقول الحق سبحانه(١) :

﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ ﴾

والاستفهام هنا للتعجُّب وللإنكار ، يعنى : كيف لا يكفيهم القرآن ولا يقنعهم وهو أعظم الآيات ، وقد أعجزهم أنْ يأتوا ولو بآية من آياته ، وجاءهم بالكثير من العبر والعجائب ؟ إذن : هم يريدون أنْ يتمحكوا ، وألا يؤمنوا ، وإلا لو أنهم طلاب حَقٍّ باحثون عن الهداية لكفاهم من القرآن آية واحدة ليؤمنوا به .

وقوله تعالى : ﴿ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ .. ﴿٥١﴾ ﴾ [العنكبوت] لأن رسول الله ﷺ كان ينزل عليه الوحى بعدة آيات ، وقد يطول إلى رُبْعين أو ثلاثة أرباع ، فلما أن يسرى عنه يتلو ما نزل عليه على صحابته ليكتبوه ، يتلوه كما أُنزل عليه ، فيكتبه الكتبة ، ويحفظه مَنْ يحفظه منهم ، وكانوا أمة رواية وأمة حفظ .

ثم يأتى وقت الصلاة فيصلى بهم رسول الله بما نزل عليه من

(١) سبب نزول الآية : « قيل إن سبب نزول هذه الآيات ما رواه ابن عيينة .. قال : أتى النبى ﷺ بكتف فيه كتاب فقال : « كفى بقوم ضلالة أن يرغبوا عما جاء به نبيهم إلى ما جاء به غير نبيهم ، أو كتاب غير كتابهم » فأنزل الله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ .. ﴿٥١﴾ ﴾ [العنكبوت] » ذكره القرطبى فى تفسيره (٥٢٤٥/٧) .

الآيات ، يُعيدها كما أملاها ، وهذه هبة ربانية منحها لرسوله ﷺ ، وخاطبه بقوله : ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنسَىٰ ۝٦ ﴾ [الأعلى]

وإلا ، فلَك أن تتحدى أكثر الناس حفظاً أنْ يُعيد عليك خطبة أو كلمة ألقاها على مدى نصف ساعة مثلاً ، ثم يعيدها عليك كما قالها في المرة الأولى .

ثم يقول سبحانه : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ .. ۝٥١ ﴾ [العنكبوت] لكن لمن ﴿ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٥١ ﴾ [العنكبوت] ؛ لأن القرآن لا يثمر إلا فيمن يُحسن استقباله ويؤمن به ، أما غير المؤمنين فهو في آذانهم وَقْر وهو عليهم عمى ، لا يفقهونه ولا يتدبرونه ؛ لأنهم يستقبلونه لا بصفاء نفس ، وإنما ببُغْض وكراهية استقبال ، فلا ينالون نوره ولا بركته ولا هدايته .

لذلك يقول تعالى في الذين يُحسنون استقبال كلام الله : ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ .. ۝٤٤ ﴾ [فصلت]

أما الذين يجحدونه ولا يُحسنون استقباله ، فيقول عنهم : ﴿ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى .. ۝٤٤ ﴾ [فصلت]

وسبق أنْ قلنا : إن الفعل واحد ، لكن المستقبل مختلف ، ومثَّلْنا لذلك بمن ينفخ في يده ليُدفئها في البرد ، ومَنْ ينفخ في الشاي ليُبرده ، وأنت أيضاً تنفخ في الشمعة لتطفئها ، وتنفخ في النار لتشعلها .

وفي موضع آخر يقول تعالى : ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ .. ۝٨٢ ﴾ [الإسراء] ، ففرْق بين الشفاء والرحمة ، الشفاء يعني : أنه كانت هناك علة ، فبرأت ، لكن الرحمة ألاَّ تعاودك

العلة ، ولا يأتيك الداء مرة أخرى ، فالقرآن نزل ليعالج الداءات النفسية ، يعالجها بالقراءة ويُحصِّنك ضدها فلا تصيبك ، وإنْ وقعتَ فى شىء من هذه الداءات فاقرأ ما جاء فيها من القرآن ، فإنها تبرأ بإذن الله ، إذن : الشفاء يعالج الداء إنْ وقع فى غفلة من سلوك النفس.

ولو طبقنا قضايا القرآن فى نفوسنا لنالتنا هذه الرحمة ، فالإنسان بدن وقيم ومعانٍ وأخلاق ، هذه المعانى فى الإنسان يسمونها النفسيات ، فقد يكون سليم البنية والجسم لكنه سقيم النفس ؛ لذلك نجد بين تخصصات الطب الطب النفسى ، وكل مريض لا يجدون لمرضه سبباً عضوياً يُشخِّصونه على أنه مرض نفسى ، وحين تسأل الطبيب النفسى تجد أن كل ما عنده عقاقير تهدىء المريض أو تهدّه فينام حتى لا يفكر فى شىء ، وهل هذا هو العلاج ؟

ولو تأملنا كتاب ربنا لوجدنا فيه العلاجيْن : العضوى والنفسى ، فسلامة الجسم فى أن الله تعالى أحلّ لك أشياء ، وحرَّم عليك أشياء ، وما عليك إلا أنْ تستقيم على منهج ربك فتسلم من داءات الجسد ، فإنْ كنتَ من هؤلاء الذين يحبون الأكل من الحلال لكنهم يبالغون فيه إلى حدِّ التُّخمة ، فاقرأ فى القرآن : ﴿ يَـٰبَنِى آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (٣١) ﴾ [الأعراف]

ثم تجد فى السنة النبوية مُذكِّرة تفسيرية لهذه الآية : « بحسب ابن آدم لُقيْمات يُقمْنَ صلْبه ، فإنْ كان ولا بُدَّ : فثلث لطعامه ، وثلث لشرابه ، وثلث لنَفَسه »[1] .

---

(١) عن المقدام بن معدى كرب قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ما ملأ آدمى وعاء شراً من بطن ، بحسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه ، فإن كان لا محالة فثلث لطعامه ، وثلث لشرابه ، وثلث لنفسه » أخرجه الترمذى فى سننه (٢٣٨٠) ، وابن ماجه فى سننه (٣٣٤٩) .

فالأصل أن يأكل الإنسان ليعيش ، لا أن يعيش ليأكل . وبعض السطحيين يقولون : ما معنى « ثلث لنفَسه » ، وهل النفَس في المعدة ؟ والآن ، ومع تطور العلوم عرفنا أن تُخمة البطن تضغط على الحجاب الحاجز وتضيق مجال الرئة فينتج عن ذلك ضيق في التنفس .

أما الناحية النفسية ، فالمرض النفسي ناتج إما عن انقباض الجوارح عن طبيعة تكوينها ، أو انبساطها عن طبيعة تكوينها ، كالبيضة مثلاً لها حجم معين فإنْ ضيَّقْتَ هذا الحجم أو بسطته تنكسر .

وهذا أيضاً أساس الداء في النفس البشرية ؛ لأن ملكات النفس ينبغي أنْ تظل في حالة توازن واستواء ، وتجد هذا التوازن في منهج ربك - عز وجل - حيث يقول سبحانه : ﴿ لِكَيْلا تَأْسَوْا[1] عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ .. (٢٣) ﴾ [الحديد]

فمعنى ﴿ لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ .. (٢٣) ﴾ [الحديد] الانقباض ﴿ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ .. (٢٣) ﴾ [الحديد] الانبساط . وكلاهما مذموم منهيٌّ عنه ، لكن مَن ذا الذي لا يأسى على ما فات ، ولا يفرح بما هو آتٍ؟

لذلك نجد البُلَداء الذين لا تَهزهم الأحداث بصحة قوية ؛ لأنهم لا يهتمون للخطوب ، حتى أن الشعراء لم يَفُتْهم هذا المعنى ، حيث يقول أحدهم[2] :

وَفي البَلادة مَا في العَزْم منْ جَلَد ... إنَّ البليد قويُّ النفْس عَاتيها
فَاسْأل أُولي العَزْم إنْ خَارتْ عزائمهمْ ... عَن البَلادة هَلْ مَادتْ رَوَاسيهَا ؟

فالذي تظنه بلادة هو عزم قويٌّ في استقبال الأحداث والصمود لها .

(١) أسيت عليه أسىً : حزنت . والأسى : الحزن . وأسيت لفلان : حزنت له . [لسان العرب - مادة : أسى] .

(٢) من شعر الشيخ رضوان الله عليه .

إذن : الرحمة فى منهج الله إن التزمنا به نأمن من الأدواء ، مادية كانت أم معنوية .

﴿ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾

(قُلْ) أى : للمنكرين لك ﴿ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا .. ﴿٥٢﴾ ﴾ [العنكبوت] أى : حسبى أن يشهد الله لى بأنّى بلّغْتُ ، فشهادتكم عندى لا تنفع ، كما أنه لا ينفعنى إيمانكم ، ولا يضرنى كفركم ، فأجرى آخذه من ربى على مجرد البلاغ وقد بلّغْتُ ، وشهد الله لى بذلك .

وفى موضع آخر يقول سبحانه : ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ .. ﴿٤٣﴾ ﴾ [الرعد] أى : انكم لم تكتفوا بالآيات ، ولم تؤمنوا بها ، لكنى أكتفى برب هذه الآيات شهيداً بينى وبينكم ، إذن : هناك خصومة فى البلاغ بين محمد ﷺ وقومه الذين يُكذّبونه فى البلاغ عن ربه .

فلا بُدَّ إذن من فَصْلٍ فى هذه الخصومة ، وإذا ما نظرنا إلى قضايا الخَلْق فى الخصومات وجدنا إمَّا أنْ يُقر المتهم ، وإما أن يشهد شاهد حَقٍّ لا شاهد زور ، ثم يعرض الأمر على القاضى ليحكم بالشهادة أو البينة .

ولا بُدَّ فى القاضى ألاّ يكون صاحب هوى ، ثم يأتى دور تنفيذ الحكم ، وهى السلطة التنفيذية ، وهذه أيضاً ينبغى ألاّ يكون لها

هوى ، فتنفذ الحكم على حقيقته ، فكأن الخصومات عند البشر تمرُّ بمراحل متعددة ، وقد تتميع الحقائق إذا لم تتوفر الشروط اللازمة لهذه الأطراف ، فلو شهد الشاهد زوراً أو مال القاضى أو المنفِّذ للحكم ودلَّس فى التنفيذ لانقلبت المسائل .

أما فى حكومة الحق ـ سبحانه وتعالى ـ فى الخصومة بين محمد وقومه ، فكفى به سبحانه حاكماً وقاضياً ومُنفِّذاً ، لماذا ؟ لأنه سبحانه : ﴿ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضِ .. (٥٢) ﴾ [العنكبوت]

فلا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء ، يعلم السر وأخْفى ، فأىُّ شهادة إذن أعدل من شهادته ؟ وهو سبحانه قاضٍ عادل يحكم بالحق ؛ لأنه ليس له سبحانه هوىً يميل به إلى الباطل ، وهو سبحانه لا يُبدل فى تنفيذ الأحكام ؛ لأنه يُنفِّذ حكمه هو سبحانه .

إذن : مَن الفائز فى حكومة قاضيها الحق ـ تبارك وتعالى ـ وأطراف الخصومة فيها محمد وقومه ؟ فاز رسول الله فى أن يكون الله هو الشهيد ، وخسر الكافرون حين كفروا به ، ولم تكْفهم البينة التى جاءتهم فى القرآن الكريم .

وعلْم الله للغيب ليس علاجاً ومذاكرة ليعلم ، إنما تأتى الأمور بتوقيت منه قديم أزلاً ، والعالم يظهر على وَفْق ما يراه أزلاً ؛ لذلك يقول سبحانه : ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٨٢) ﴾ [يس]

أى : يقول للشىء ، فكأنه موجود فعلاً ينتظر الأمر من الله بالظهور للناس ، فقوله (كُنْ) للظهور فقط ، أما مسألة الخَلْق فمنتهية أزلاً ، و (الماكيت) موجود ، فالحق سبحانه يعلم غَيْب السموات والأرض ، أما نحن فلا نعلم حتى غَيْب أنفسنا .

ويقول سبحانه : ﴿ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ۝ ٧ ﴾ [طه] فهل هناك أخفى من السر ؟ قالوا : السر ما تُسِرُّه فى نفسك ، والأخفى منه أنْ يعلمه سبحانه قبل أن يكون فى نفسك .

وقد وقف البعض عند قوله تعالى : ﴿ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ۝ ٢٩ ﴾ [النور] وقوله سبحانه : ﴿ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ۝ ١١٠ ﴾ [الأنبياء]

يقولون : ما وجه امتنان الله بعلم الجهر من القول ، وبعلْم ما نُبدى ، فهذا شيء غير مستور يعرفه الجميع ؟

ونقول : افهم عن الله مراده ، فالمعنى لم يقُلْ سبحانه : أعلم ما تبدى أنت ، ولا ما تجهر به أنت ، إنما ما تبدون كلكم ، وما تجهرون به كلكم ، ولتوضيح هذه المسألة تصوَّر مظاهرة من عدة مئات أو عدة آلاف تختلط بينهم الهتافات والأصوات وتتداخل الكلمات ، بحيث لا تستطيع أن تميز صوت هذا من صوت ذاك .

لكن الحق سبحانه يستطيع تمييز هذه الأصوات ، وإعادة كل منها إلى صاحبه ؛ لذلك نرى فى المظاهرات أن كل إنسان يستطيع أن يقول ما يشاء ، ويهتف بما لا يجرؤ أن يهتف به منفرداً ؛ لأن صوته سيختلط مع الأصوات ، ويستتر فيها فلا يعرف مصدره ، وهكذا يكون علم الجَهْر أقوى من علم الغَيْب .

فإنْ قلت : إن بعض العلماء باكتشافاتهم وبحوثهم توصلوا إلى معرفة أسرار كانت مستترة فى الكون ، كالكهرباء والذرة وغيرها ، فهُمْ بذلك يعلمون الغيب . نقول : نعم ، علموا شيئاً كان مستوراً فى الكون ، لكن علموه بمقدمات خلقها الله ويسَّرها لهم ، فأخذوا هذه المقدمات وتوصَّلوا بها إلى اكتشافاتهم ، كما يحلّ ولدك مثلاً تمرين الهندسة ، فيستعين بالمعطيات .

إذن : فهو فى حقيقة الأمر ليس غيباً ، بل هو شىء موجود ، لكن له ميلاد ووقت يظهر فيه ، فإنْ جاء وقته يسَّر الله لخَلْقه الوصول إليه ، إما بالبحث واستخدام المقدمات ، فإذا صادف ميلاد السر بحث الخلق يُقال : إنهم أحاطوا علْماً ببعض غيب الله .

ويقول تعالى : ﴿ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ .. (٢٥٥) ﴾ [البقرة] أى : شاء أنْ يُولد ، فإنْ جاء ميلاد السر ، ولم يتوصَّلوا إليه ببحوثهم ، ولم يقفوا على مقدماته كشفه الله لهم ولو مصادفة ، وقد اكتشفوا كثيراً من أسرار الكون مصادفة .

فالغيب الحقيقى : هو الذى ليس له مقدمات تُوصِّل إليه ، ولا يعلمه أحد إلا الله ، والذى قال الله عنه : ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلاَّ مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ .. (٢٧) ﴾ [الجن] فالرسول - إذن - لا يعلم الغيب ، إنما عُلِّم الغيب .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ .. (٥٢) ﴾ [العنكبوت] أى : بعبادة ما دون الله من الأصنام والأوثان ﴿ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ .. (٥٢) ﴾ [العنكبوت] الخالق واجب الوجود ﴿ أُوْلَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٥٢) ﴾ [العنكبوت] لأن كفر الخَلْق بالخالق لا يؤثر فى ذاته سبحانه ، ولا فى صفات الكمال فيه ، لأنه سبحانه بصفات الكمال خلقهم ، فله سبحانه صفات الكمال ، آمنوا أم كفروا .

لكن فَرْق بين مَنْ يؤمن ومَنْ يكفر ، فالإنسان بطبعه حريص على الحياة متمسك بها ، حتى إنه إنْ أصابه مرض طلب العلاج ليصون حياته وهو يخاف الموت ، ويرى مصارع الناس من حوله ، وكيف سبقه أجداده ولم يخلد منهم أحد ، ويرى أن الموت يأتى بلا أسباب ؛ حتى قيل : والموت من غير سبب هو السبب .

إذن : فالموت حقيقة واقعة ، لكن يشكُّ الناس فيها ولا

يتصورونها لأنفسهم لأنهم يكرهونها ؛ لذلك يقال فى الأثر : ما رأيتُ يقيناً أشبه بالشكِّ من يقين الناس بالموت .

وليقين الإنسان فى الموت نراه يحب البقاء فى ولده ، وفى ولد ولده ليبقى ذكْره أطول فترة ممكنة ، وما دام الأمر كذلك ، فلماذا لا تؤمن بالله فَيورثك الإيمانُ حياةً خالدة باقية لا نهايةَ لها ، لا تفارقها ولا تفارقك ، وهى حياة الآخرة . إذن : فمَن الخاسرون ؟ الخاسرون هم الكافرون الذى قصروا حياتهم على عمرهم فى الدنيا .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾

عجيب أنْ يطلب الإنسان لنفسه العذاب ، وأن يستعجله إنْ أبطأ عليه ، إذن : ما طلبه هؤلاء إلا لاعتقادهم أنه غير واقع بهم ، وإلا لو وَثقُوا من وقوعه ما طلبوه .

﴿ ولَوْلا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ .. ﴿٥٣﴾ ﴾ [العنكبوت] لأن كل شىء عند الله بميقات وأجل ، والأجل يختلف باختلاف أصحابه وهو أجل الناس وأعمارهم ، وهى آجال متفرقة فيهم ، لكن هناك أجل يجمعهم جميعاً ، ويتفقون فيه ، وهو أجل الساعة .

فقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [الأعراف] أى : بآجالهم المتفرقة . أمّا أجل القيامة فأجل واحد مُسمّى عنده تعالى ، ومن عجيب الفَرْق بين الأجلين أن الآجال المتفرقة فى الدنيا تنهى حياة ، أمّا أجل الآخرة فتبدأ به الحياة .

والمعنى ﴿ وَلَوْلا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ .. (٥٣) ﴾ [العنكبوت] أن المسألة ليست على هواهم ورغباتهم ؛ لذلك يقول تعالى : ﴿ خُلِقَ الإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ .. (٣٧) ﴾ [الأنبياء] ويقول : ﴿ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلا تَسْتَعْجِلُونِ (٣٧) ﴾ [الأنبياء]

لذلك لما عقد النبي ﷺ صلح الحديبية بينه وبين كفار مكة ، ورضي أنْ يعود بأصحابه دون أداء فريضة العمرة غضب الصحابة وعلي وعمر ، ولم يعجبهم هذا الصلح ، وكادوا يخالفون رسول الله غيرةً منهم على دينهم ، حتى أن النبي ﷺ دخل على أم سلمة رضي الله عنها وقال : « هلك المسلمون »[1] قالت : ولم يا رسول الله ؟ قال : « أمرتهم فلم يمتثلوا » فقالت : يا رسول الله اعذرهم ، فهم مكروبون ، جاءوا على شَوْق لبيت الله ، وكانوا على مقربة منه هكذا ، ثم يُمنعون ويُصدُّون ، اعذرهم يا رسول الله ، ولكن امْضِ فاصنع ما أمرك الله به ودَعْهم ، فإنْ هم رأوْكَ فعلتَ فعلوا ، وعلموا أن ذلك عزيمة .

وفعلاً ذهب رسول الله ، وتحلّل من عمرته ، ففعل القوم مثله ، ونجحت مشورة السيدة أم سلمة ، وأنقذت الموقف .

ثم بيَّن الله لهم الحكمة في العودة هذا العام دون قتال ، ففي مكة

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٢٦/٤) ضمن حديث صلح الحديبية الطويل من حديث المسور بن مخرمة الزهري ومروان بن الحكم أن رسول الله ﷺ قال : يأيها الناس انحروا واحلقوا فما قام أحد ثم عاد بمثلها فما قام رجل حتى عاد بمثلها فما قام رجل فرجع رسول الله ﷺ فدخل على أم سلمة فقال : يا أم سلمة ما شأن الناس ؟ قالت : يا رسول الله قد دخلهم ما قد رأيت فلا تكلمن منهم إنساناً واعمد إلى هديك حيث كان فانحره واحلق ، فلو قد فعلت ذلك فعل الناس ذلك فخرج رسول الله لا يكلم أحداً حتى أتى هديه فنحره ثم جلس فحلق فقام الناس ينحرون ويحلقون .

إخوان لكم آمنوا ، ويكتمون إيمانهم ، فإنْ دخلتم عليهم مكة فسوف تقتلونهم دون علم بإيمانهم .

وكان عمر - رضى الله عنه - كعادته شديداً فى الحق ، فقال : يا رسول الله ، ألسنا على الحق ؟ قال ﷺ « بلى » قال : أليسوا على الباطل ؟ قال ﷺ « بلى » قال : فلِمَ نُعطى الدنية فى ديننا ؟ فقال أبو بكر : الزم غَرْزك يا عمر[1] .. يعنى قف عند حدِّك وحجِّم نفسك ، ثم قال بعدها ليبرر هذه المعاهدة : ما كان فتح فى الإسلام أعظمَ من فتح الحديبية - لا فتح مكة .

لماذا ؟ لأن الحديبية انتزعت من الكفار الاعترافَ بمحمد ، وقد كانوا معارضين له غير معترفين بدعوته ، والآن يكاتبونه معاهدة ويتفقون معه على رأى ، ثم إنها أعطت رسول الله فرصة للتفرغ لأمر الدعوة ونشرها فى ربوع الجزيرة العربية ، لكن فى وقتها لم يتسع ظنُّ الناس لما بين محمد وربه ، والعباد عادةً ما يعجلون ، والله - عز وجل - لا يعجل بعجلة العباد حتى تبلغ الأمور ما أراد سبحانه .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٥٣) ﴾ [العنكبوت] يعنى : فجأة ، وليس حسب رغبتهم ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٥٣) ﴾ [العنكبوت] لا يشعرون ساعتها أم لا يشعرون الآن أنها حق ، وأنها واقعة لأجل مسمى ؟

المراد لا يشعرون الآن أنها آتية ، وأن لها أجلاً مُسمى ، وسوف تباغتهم بأهوالها ، فكان عليهم أن يعلموا هذه من الآن ، وأن يؤمنوا

---

(١) أخرج نحوه مسلم فى صحيحه (١٧٨٥) كتاب الجهاد ، والبخارى فى صحيحه (٤٨٤٤) فى تفسير سورة الفتح من حديث سهل بن حنيف رضى الله عنه .

بهـا . إذن : فليس المراد أنهم لا يشـعرون بالبـغتـة ؛ لأن شعـورهم بالبغتة ساعتها لا ينفعهم بشىء .

ثم يقول الحق سبحانه[1] :

﴿ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾

أى : قُلْ لهم إنْ كنتم تستعجلون العـذاب فهو آت لا محالة ، وإنْ كنتم فى شوق إليه فجهنم فى انتـظاركم ، بل ستمتلئ منكم وتقول : هل من مزيد ؟ والعذاب يتناسب وقدرة المعذِّب قوة وضعفاً ، وإحاطة وشمولاً ، فإذا كان المعـذِّب هو الله ـ عز وجل ـ فعذابه لا يُعذِّبه أحد من العالمين .

ومعنى ﴿ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾ [العنكبوت] الإحاطة أن تـشمل الشىء من جـميع جـهاته ، فـالجـهات أربع : شـمال وجنوب وشـرق وغرب ، وبين الجهـات الأصلية جهات فـرعية ، وبين الجهات الفـرعية أيضاً جهات فرعية ، والإحاطة هى التى تشمل كل هذه الجهات .

ومن ذلك قـوله تعـالى : ﴿ إِنَّا أَعْتَـدْنَا لِلظَّالِمِـينَ نَارًا أَحَـاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا .. ﴿٢٩﴾ ﴾ [الكهف] يعنى : من كل جهاتهم .

ومن عجيب أمر النار فى الآخرة أن النار فى الدنيا يمكن أنْ تُعذِّب شخـصاً بنار تحوطه لا يسـتطيع أنْ يُفلت منها ، لكن النار بطبـيعتـها تعلو ؛ لأن اللهب يتجه إلى أعلى ، أما إنْ كانت تحت قدمك فيمكنك أنْ تدوسها بقدمك ، كما تطفىء مثـلاً (عُقْب) السيجارة ، فحين تدوسه

---

(١) سبب نزول الآية : قال القرطبى فى تفسيره (٥٢٤٧/٧) : « قيل : نزلت فى عبد الله بن أبى أمية وأصحابه من المشركين حين قالوا ﴿ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا .. ﴿٩٢﴾ ﴾ [الإسراء] .

تمنع عنه الأكسوجين ، فتنطفىء النار فيه ، أما فى نار الآخرة فتأتيهم من كل جهاتهم :

﴿ يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٥٥) ﴾

وفي موضع آخر يقول سبحانه : ﴿ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ (١٦) ﴾ [الزمر]

وهاتان الجهتان لا تأتى منهما النار فى الدنيا ؛ لأن النار بطبيعتها تصعد إلى أعلى ، وإنْ كانت تحت القدم تنطفىء . إذن : هذا ترقٍّ فى العذاب ، حيث لا يقتصر على الإحاطة من جميع جهاته ، إنما يأتيهم أيضاً من فوقهم ومن تحتهم .

لكن قد يتجلَّد المعذَّب للعذاب ، ويتماسك حتى لا تشمت فيه ، وهذا يأتيه عذاب من نوع آخر ، عذاب يُهينه ويُذلُّه ، ويُقال له : ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ (٤٩) ﴾ [الدخان] لذلك وصف العذاب ، بأنه : مهين ، وأليم ، وعظيم ، وشديد .

وقوله تعالى ﴿ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٥٥) ﴾ [العنكبوت] لم يقل : ذوقوا النار ، إنما ذوقوا ما عملتم ، كأن العمل نفسه سيكون هو النار التى تحرقهم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ (٥٦) ﴾

بعد أنْ تحدَّث الحق سبحانه عن الكفار والمكذِّبين أراد أنْ يُحدث توازناً فى السياق ، فحدَّثنا هنا عن المؤمنين ليكون أنكَى للكافرين ، حين تردف الحديث عنهم ، وعما يقع لهم من العذاب بما سينال المؤمنين من النعيم ، فتكون لهم حسرة شديدة ، فلو لم يأخذ المؤمنون هذا النعيم لكانَ الأمر أهونَ عليهم .

وقوله تعالى : ﴿ يَـٰعِبَادِىَ .. (٥٦) ﴾ [العنكبوت] سبق أن قُلْنا : إن الخَلْق جميعاً عبيد لله ، وعبيد الله قسمان : مؤمن وكافر ، وكل منهما جعله الله مختاراً : المؤمن تنازل عن اختياره لاختيار ربه ، وفضَّل مراده سبحانه على مراد نفسه ، فصار عبداً فى كل شىء حتى فى الاختيار ، فلما فعلوا ذلك استحقوا أن يكونوا عبيداً وعباداً لله .

أما الكافر فتأبَّى على مراد ربه ، واختار الكفر على الإيمان ، والمعصية على الطاعة ، ونسى أنه عبد لله مقهور فى أشياء لا يستطيع أن يختار فيها ، وكأن الله يقول له : أنت أيها الكافر تمردْتَ على ربك ، وتأبَّيْتَ على منهجه فى (افعل) و (لا تفعل) ، واعتدْتَ التمرد على الله . فلماذا لا تتمرد عليه فيما يُجريه عليك من أقدار ، لماذا لا تتأبَّى على المرض أو على الموت ؟ إذن : فأنت فى قبضة ربك لا تستطيع الانفلات منها .

وعليه ، فالمؤمن والكافر سواء فى العبودية لله ، لكن الفرْق فى العبادية حيث جاء المؤمن مختاراً راضياً بمراد الله ، وفَرْق بين عبد يُطيعك وأنت تجرُّه فى سلسلة ، وعبد يخدمك وهو طليق حُرٌّ . وهكذا المؤمن جاء إلى الإيمان بالله مختاراً مع إمكانية أنْ يكفر ، وهذه هى العبودية والعبادية معاً .

ومعنى ﴿ إِنَّ أَرْضِى وَاسِعَةٌ .. (٥٦) ﴾ [العنكبوت] يخاطبهم ربهم هذا

الخطاب وهم فى الأرض وفى سعتها ، ليلفت أنظارهم إلى أنهم سيُضطهدون ويُعذَّبون ، وسيقع عليهم إيذاء وإيلام ، فيقول لهم : إياكم أن تَصْرِفكم هذه القسوة ، إياكم أنْ تتراجعوا عن دعوتكم ، فإذا لم يناسبكم هذا المكان فاذهبوا إلى مكان آخر فأرضى واسعة فلا تُضيِّقوها على أنفسكم .

لذلك يقول سيدنا رسول الله ﷺ : « الأرض لله ، والعباد كلهم لله ، فإنْ أبصرتَ خيراً فأقِمْ حيث يكون »(١) .

فالذى نعانى منه الآن هو هذه الحدود وهذه القيود التى وضعناها فى جغرافية أرض الله ، فضيَّقنا على أنفسنا ما وسَّعه الله لنا ، فأرْضُ الله الواسعة ليست فيها تأشيرات دخول ولا جوازات سفر ولا (بلاك لست) .

لذلك قلنا مرة فى الأمم المتحدة : إنكم إنْ سعيتُم لتطبيق مبدأ واحد من مبادىء القرآن فلن يوجد شر فى الأرض ، ألا وهو قوله تعالى : ﴿ وَالأَرْضَ وَضَعَهَا لِلأَنَامِ (١٠) ﴾ [الرحمن]

والمعنى : الأرض كل الأرض للأنام كل الأنام ، فإنْ ضاق رزقك فى مكان فاطلبه فى مكان آخر ، وإلا فالذى يُتعب الناس الآن أن توجد أرض بلا رجال ، أو رجال بلا أرض ، وها هى السودان مثلاً بجوارنا ، فيها أجود الأراضى لا تجد مَنْ يزرعها ، لماذا ؟ للقيود التى وضعناها وضيَّقنا بها على أنفسنا .

---

(١) عن الزبير بن العوام قال قال ﷺ : « البلاد بلاد الله ، والعباد عباد الله ، فحيثما أصبت خيراً فاقم » أخرجه أحمد فى مسنده (١٦٦/١) ، وأورده العجلونى فى كشف الخفاء (٣٤٢/١) بلفظ « فأى موضع رأيت فيه رفقاً فاقم » وقال : « رواه الطبرانى عن الزبير بسند ضعيف ، وعزاه النجم أيضاً لاحمد والطبرانى عن الزبير بسند ضعيف » .

وصدق الشاعر حين قال :

لَعَمْرُكَ مَا ضَاقَتْ بِلادٌ بأهْلِها ... ولكنَّ أخْلاقَ الرجَالِ تَضيقُ

ثم يقول سبحانه ﴿ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ (٥٦) ﴾ [العنكبوت] فإنْ أخذنا بمبدأ الهجرة فلا بُدَّ أن نعلم أن للهجرة شروطاً أولها : أنْ تهاجر إلى مكان يحفظ عليك إيمانك ولا ينقصه ، وانظر قبل أنْ تخرج من بلدك هل ستتمكن في المهجر من أداء أمور دينك كما أوجبها الله عليك ؟ فإنْ كان ذلك فلا مانع ، وإلا فلا هجرةَ لمكان يُخرجني من دائرة الإيمان ، أو يحول بيني وبين أداء أوامر ديني .

وهل يُرضيك أنْ تعيش لتجمع الأموال في بلاد الكفر ، وأنْ تدخل عليك ابنتك مثلاً وفي يدها شاب لا تعرف عنه شيئاً قد فُرِض عليك فَرْضاً ، فقد عرفته على طريقة القوم ، ساعتها لن ينفعك كل ما جمعت ، ولن يصلح ما جُرِح من كرامتك .

وسبق أن أوضحنا أن الهجرة قد تكون إلى دار أمْن فقط ، حيث تأمن فيها على دينك ، وتأمن ألاَّ يفتنك عنه أحد ، ومن ذلك الهجرة التي أمر بها رسول الله إلى الحبشة ، وهي ليست أرْضَ إيمان ، بل أرض أمْن .

وقد علَّل رسول الله ﷺ أمره بالهجرة إليها بقوله : « إن فيها ملكاً لا يُظْلَم عنده أحد »[1] وقد تبيَّن بعد الهجرة إليها صدْق رسول الله ،

(١) عن أم سلمة أنها قالت : « لما ضاقت علينا مكة ، وأوذي أصحاب رسول الله ﷺ وفتنوا ورأوا ما يصيبهم من البلاء والفتنة في دينهم ، وأن رسول الله ﷺ لا يستطيع دفع ذلك عنهم ، وكان رسول الله في منعة من قومه ومن عمه ، لا يصل إليه شيء مما يكره مما ينال أصحابه ، فقال لهم رسول الله ﷺ : « إن بأرض الحبشة ملكاً لا يظلم أحد عنده ، فالحقوا ببلاده حتى يجعل الله لكم فرجاً ومخرجاً مما أنتم فيه » حديث طويل أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٢/٣٠١) وأورده ابن هشام في السيرة بنحوه (١/٣٢١) .

وكأنه على علم تام بالبيئة المحيطة به وبأحوال أهلها .

لذلك لم يأمرهم مثلاً بالهجرة إلى أطراف الجزيرة العربية ؛ لأنها كانت خاضعة لقريش بما لها من سيادة على الكعبة ، فلا يستطيع أحد أنْ يحمى مَنْ تطلبه قريش ، حتى الذين هاجروا بدينهم إلى الحبشة لم يَسْلَموا من قريش ، فقد أرسلتْ إلى النجاشى مَنْ[1] يكلمه فى شأنهم ، وحملوا إليه الهدايا المغرية ليسلمهم المهاجرين من المؤمنين بمحمد ، لكن لم تفلح هذه الحيلة مع الملك العادل الذى راود الإيمانُ قلبه ، فأحب المؤمنين ودافع عنهم ورفض إعادتهم ويقال : إنه آمن بعد ذلك ، ولما مات صلَّى عليه رسول الله[2] .

أما الهجرة إلى المدينة بعد الهجرة إلى الحبشة فكان لدار أَمْن وإيمان معاً ، حيث تأمن فيها على دينك ، وتتمكّن فيها من نشره والدعوة إليه ، وتجد بها إخواناً مؤمنين يُواسُونك بأموالهم ، وبكل ما يملكون ، وقد ضرب الأنصار فى مدينة رسول الله أروع مثل فى التاريخ فى المواساة ، فالأنصارى كان يرى أخاه المهاجر ترك أهله فى مكة ، وله إرْبة وحاجة للنساء ، فيُطلِّق له إحدى زوجاته ليتزوجها ، فانظر ماذا فعل الإيمان بالأنصار .

---

(١) هو : عمرو بن العاص ، أبو عبد الله ، فاتح مصر وأحد عظماء العرب ودهاتهم وأولى الرأى والحزم والمكيدة فيهم ، كان فى الجاهلية من الأشداء على الإسلام ، أسلم فى هدنة الحديبية ، ولد ٥٠ ق. هـ ، وتوفى ٤٣ هـ بالقاهرة عن ٩٢ عاماً (الأعلام للزركلى ٥/٧٩) . وذكر ابن هشام فى السيرة النبوية (١/٣٦٠) « أن قريشاً أرسلت عمرو بن العاص وعبد الله بن أبى ربيعة للنجاشى ليوقعوا بين المهاجرين والنجاشى ليسلمهم إليه ، وقال عمرو : والله لأخبرنه أنهم يزعمون أن عيسى عبد » .

(٢) عن عمران بن حصين أن رسول الله ﷺ قال : « إن أخاكم النجاشى قد مات فقوموا فصلوا عليه ، قال : فقمنا فصففنا عليه كما يصف على الميت ، وصلينا عليه كما يصلى على الميت » أخرجه أحمد فى مسنده (٤/٤٣٩ ، ٤٤٦) والترمذى فى سننه (١٠٣٩) وصححه ، والنسائى فى سننه (٤/٧٠) .

وفي قوله سبحانه ﴿فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ (٥٦)﴾ [العنكبوت] أسلوب يُسمُّونه أسلوب قَصْر ، مثل قوله تعالى : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥)﴾ [الفاتحة]

وفَرْق بين أنْ نقول : نعبدك . و (إياك نعبد) : نعبدك لا تمنع أنْ نعبد غيرك ، أمّا (إيَّاك نَعْبد) فتقصر العبادة على الله - عز وجل - ، ولا تتجاوزه إلى غيره .

فالمعنى - إذن : إنْ كنت ستهاجر فلتكُن هجرتك لله ، وقد فسَّرها النبي ﷺ في الحديث الشريف : « فَمَنْ كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومَنْ كانت هجرته لدنيا يصيبها ، أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه »[1] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ (٥٧)﴾

يعني : إنْ كنتم ستقولون - وقد قالوا بالفعل - ليس لنا في المدينة دار ولا عقار ، وليس لنا فيها مصادر رزق[2] ، وكيف نترك أولادنا وبيئتنا التي نعيش فيها ، فاعلموا أنكم ولا بُدَّ مفارقون هذا كله ، فإنْ لم تُفارقوها وأنتم أحياء فسوف تفارقونها بالموت ؛ لأن ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ .. (٥٧)﴾ [العنكبوت]

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخاري في صحيحه (١) ، وكذا مسلم في صحيحه (١٩٠٧) كتاب الإمارة (١٥٥) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

(٢) ذكر القرطبي في تفسيره (٧/٥٢٥٠) عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال للمؤمنين بمكة حين آذاهم المشركون « اخرجوا إلى المدينة وهاجروا ولا تجاوروا الظلمة » قالوا : ليس لنا بها دار ولا عقار ولا من يطعمنا ولا من يسقينا . فنزلت ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ .. (٦٠)﴾ [العنكبوت] .

ومَنْ يدريكم لعلكم تعودون إلى بلدكم مرة أخرى ، كما قال الله لرسوله : ﴿ إِنَّ الَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ .. (٨٥) ﴾ [القصص]

وعلى فَرْض أنكم لن تعودوا إليها فلن يُضيركم شيء ؛ لأنكم لا بُدَّ مفارقوها بالموت . وكأن الحق - تبارك وتعالى - يخفف عنهم ما يلاقونه من مفارقة الأهل والوطن والمال والأولاد .

كما أننا نلحظ في قوله سبحانه ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ .. (٥٧) ﴾ [العنكبوت] بعد ﴿ إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ .. (٥٦) ﴾ [العنكبوت] أن الخواطر التى يمكن أن تطرأ على النفس البشرية حين يُشرِّع الله أمراً يهيج هذه الخواطر مثل ﴿ إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ .. (٥٦) ﴾ [العنكبوت] وما تثيره في النفس من حب الجمع والتملُّك يجعل لك مع الأمر ما يهبِّط هذه الخواطر .

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ .. (٥٧) ﴾ [العنكبوت] حتى لا نطمعَ في حطام الدنيا ، ويُلْهينا إغراء المال والهجرة لجمعه ، فالنهاية بعد ذلك كله الموت ، وفقدان كل ما جمعت .

وهذه القضية واضحة في قوله سبحانه : ﴿ إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا .. (٢٨) ﴾ [التوبة]

فلما أراد الله تعالى أن يُنهي وجود المشركين في البيت الحرام علم سبحانه أن المسلمين سيحسبون النتيجة المادية لمنع المشركين من دخول الحرم ، وأنها ستؤثر على تجارتهم وأرزاقهم في مواسم التجارة والحج .

لذلك قال بعدها مباشرة : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً[1] فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن

---

(١) العيلة : الفقر . والعيِّل : الفقير . يقال : عال يعيل عيلة إذا افتقر . [لسان العرب - مادة : عيل] .

فَضْلِه .. (٢٨) ﴾ [التوبة] فساعة يقرأونها فى التشريع يعلمون أن الله اطَّلع على ما فى نفوسهم ، وجاءهم بالردِّ عليه حتى لا يتكلموا به ، وهذا يعنى أن التشريع يأتى ليعالج كل خواطر النفس ، فلا ينزعك من شىء تخافه إلا ومع التشريع ما يُذهب هذه المخاوف .

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (٥٨) ﴾

هذه فى مقابل : ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ (٥٤) يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ .. (٥٥) ﴾ [العنكبوت] وذكر المقابل لزيادة النكاية بالكافرين ، كما يقول سبحانه : ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (١٣) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ (١٤) ﴾ [الانفطار]

فجَمْع المتقابلين يزيد من فَرْحة المؤمن ، ويزيد من حَسْرة الكافر .

ومعنى ﴿ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا .. (٥٨) ﴾ [العنكبوت] أى : نُنزلهم ونُمكِّنهم منها ، كما جاء فى قوله تعالى مخاطباً رسوله ﷺ : ﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ .. (١٢١) ﴾ [آل عمران] يعنى : تُنزلهم أماكنهم .

والجنة تُطلق على الأرض ذات الخضرة والأشجار والأزهار فى الدنيا ، كما جاء فى قوله سبحانه : ﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ .. (٢٦٦) ﴾ [البقرة]

وقوله سبحانه : ﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ .. (١٧) ﴾ [القلم]

وقوله سبحانه : ﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ .. (٣٢) ﴾ [الكهف]

فإذا كانت جنة الدنيا على هذه الصورة من الخصْب والنماء والجمال ، وفيها أسباب القُوت والترف ، إذا كانَ ذلك فى دنيا الأسباب التى نراها ، فما بالك بما أعدَّه الله لخَلْقه فى الآخرة ؟

ومن عجائب الجنة أنها ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ .. (٥٨)﴾ [العنكبوت] ونحن نعرف أن أنهار الدنيا تجرى خلالها عبر الشُّطآن التى تحجز الماء ، أمّا فى الجنة فتجرى أنهارها بلا شُطآن .

لذلك لما كنا نسافر إلى بلاد المدنية والتقدّم ، ونرى زخارف الحياة وترفها كنتُ أقول لمن معى : خذوا من هذا النعيم عظَةَ ، فهو ما أعدَّه البشر للبشر ، فما بالكم بما أعدَّه ربُّ البشر للبشر ؟

فإذا رأيتَ نعيماً عند أحد فلا تحقد عليه ، بل ازْدَدْ به يقيناً فى الله تعالى ، وأن ما عنده أعظم من هذا . ألاَ ترى أن الحق ـ تبارك وتعالى ـ حينما يخبرنا عن الجنة يقول : ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِى وُعِدَ الْمُتَّقُونَ.. (١٥)﴾ [محمد] فيجعلها مثلاً ؛ لأن ألفاظ اللغة لا تؤدى المعانى التى فى الجنة ولا تَصفها .

لذلك يقول النبى ﷺ : « فيها ما لا عَيْن رأت ، ولا أذن سمعتْ ، ولا خطر على قلب بشر »[1] فكل ما جاء فيها ليس وصفاً لها إنما مجرد مثَل لها ، ومع ذلك لما أعطانا المثل للجنة صفّى المثل من شوائبه ، فقال : ﴿فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ[2] وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ

(١) عن أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ : « قال الله : أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، فاقرأوا إن شئتم ﴿فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ .. (١٧)﴾ [السجدة] » أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٢٤٤ ، ٧٤٩٨) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢٨٢٤) كتاب الإيمان .

(٢) أسن الماء يأسن : تغيرت رائحته ، فهو آسن . [القاموس القويم ١/ ٢٠] قال فى التهذيب : هو الذى لا يشربه أحد من نتنه . [ذكره ابن منظور فى لسان العرب ـ مادة : أسن] .

طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى .. (١٥) ﴾ [محمد] ويكفى أن تعلم أن نعيم الجنة يأتى مناسباً لقدرة وإمكانيات المنعم سبحانه .

وقوله سبحانه ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا .. (٥٨) ﴾ [العنكبوت] لأن النعيم مهما كان واسعاً ، ومهما تعددتْ ألوانه ، فيُنغِّصه ويُؤرِّق صاحبه أنْ يزول إما بالموت وإما بالفقر ، أما نعيم الجنة فدائم لا يزول ولا ينقطع ، فلا يفوتك ولا تفوته ، كما قال سبحانه : ﴿ لا مَقْطُوعَةٍ وَلا مَمْنُوعَةٍ (٣٣) ﴾ [الواقعة] لا يُكدِّرها شىء .

إذن : فالرابح مَنْ آثر الآخرة على الدنيا ؛ لأن نعيم الدنيا مآله إلى زوال ، ولا تقُلْ : إن عمر الدنيا كم مليون سنة ، إنما عمرها مدة بقائك أنت فيها ، وإلا فماذا تستفيد من عمر غيرك ؟

ثم إنك تتمتع فى الدنيا على قدر إمكاناتك ومجهوداتك ، فنعيم الدنيا بالأسباب ، لكن نعيم الآخرة بالمسبِّب سبحانه ، لذلك ترى نعيماً صافياً لا يُنغِّصه شىء ، فأنت ربما تأكل الأكْلة فى الدنيا فتسبِّب لك المتاعب والمضايقات ، كالمغص والانتفاخ ، علاوة على ما تكرهه أثناء قضاء الحاجة للتخلُّص من فضلات هذه الأكلة .

أما فى الآخرة فقد أعدَّ الله لك الطعام على قَدْر الحاجة ، بحيث لا تكون له فضلات ، لأنه طُهى بكُنْ من الله تعالى .

لذلك سُئل أحد علماء المسلمين : تقولون : إن الجنة تأكلون فيها ، ولا تتغوطونَ ، فكيف ذلك ؟ فقال : ولم التعجب ، ألاَ ترونَ الجنين فى بطن أمه يتغذى وينمو ولا يتغوط ؛ لأن الله تعالى يعطيه غذاءه على قدر حاجته للنمو ، فلا يبقى منه فضلات ، ولو تغوَّط فى مشيمته لمات فى بطن أمه .

وقوله تعالى : ﴿ نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (٥٨) ﴾ [العنكبوت] نعم ، نِعْم هذا الأجر ؛ لأنك مكثْتَ إلى سنٍّ التكليف ترْبَع فى نعم الله دون أنْ يُكلِّفك بشيء ، ثم يعطيك على مدة التكليف أجراً لا ينقطع ، ولا نهاية له ، فأىُّ أجر أسْخَى من هذا ؟ ويكفى أن الذى يقرِّر هذه الحقيقة هو الله ، فهو سبحانه القائل : ﴿ نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (٥٨) ﴾ [العنكبوت]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٥٩) ﴾

فهذه من صفات العاملين ﴿ الَّذِينَ صَبَرُوا .. (٥٩) ﴾ [العنكبوت] فلا تظن أن العمل ما كان فى بحبوحة العيش وترَف الحياة ، فالعامل الحق هو الذى يصبر ، وكلمة ﴿ الَّذِينَ صَبَرُوا .. (٥٩) ﴾ [العنكبوت] تدل على أنه سيتعرَّض للابتلاء ، كما قال سبحانه : ﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ (٢) ﴾ [العنكبوت]

فالذين اضطهدوا وعُذِّبوا حتى اضطروا للهجرة بدينهم صبروا ، لكن هناك ما هو أكبر من الصبر ؛ لأن خَصْمك من الجائز أنْ يصبر عليك ، فيحتاج الأمر إلى المصابرة ؛ لذلك قال سبحانه ﴿ اصْبِرُوا وَصَابِرُوا .. (٢٠٠) ﴾ [آل عمران] ومعنى : صابره . يعنى : تنافس معه فى الصبر .

والصبر يكون على آفات الحياة لتتحملها ، ويكون على مشقة التكاليف ، وعلى إغراء المعصية ، يقولون : صبر على الطاعة ، وصبر عن المعصية ، وصدق الشاعر حين قال :

وكُنْ رجلاً كالضِّرس يرسُو مكَانَهُ ... ليَمْضُغَ لاَ يَعْنيه حلْو ولاَ مُرّ